الفصل الأول
الانثروبولوجيا والثقافة والتربية

معنى الانثروبولوجيا

الانثروبولوجيا هى دراسة الإنسان وطرق معيشته . ولهذا العلم فرعان أساسيان : الانثروبولوجيا الطبيعية التى تقتفى أثر تطور الكائن الحى البشرى وتكيفه للبيئات المختلفة ، والانثروبولوجيا الثقافية التى تدرس الثقافات الحية والمندثرة . وتتضمن الأنثروبولوجيا الثقافية فى أوسع معنى لها الدراسات اللغوية (دراسة أشكال لغة الحديث) وعلم الآثار (دراسة الثقافات المندثرة) ، والأنثولوجيا (علم الأجناس البشرية) وهى دراسة الثقافات الحية أو تلك الثقافات التى يمكن ملاحظتها بطريقة مباشرة[1] ومهمتنا هى بيان العلاقة بين التربية والأنثروبولوجيا الثقافية بهذا المعنى الأخير .

ولقد صارت الأنثروبولوجيا علماً منذ حوالى قرن مضى من خلال اختمار الأفكار التى أثارتها الكشوف والآثار والجيولوجيا،وأهم من ذلك كله الداروينية . ولقد اعتبر الأنثروبولوجيون الإنجليز والأمريكيون الأوائل وهم تحت تأثير مفهوم التطور الحيوى من أمثال إدوارد بورنت تايلور ولويس هنرى مورجان جميع الثقافات كمراحل على طريق عام وحيد مؤد إلى مجتمعات أوربا وأمريكا الصناعية . فمورجان مثلا حدد ثلاثة أطوار ضرورية للنمو الثقافى – هى الهمجية والبربرية والحضارية ، بما تتضمنه من مراحل فرعية مناسبة .

وفى مقابل ذلك على القارة الأوربية نجد أن « مدرسة الانتشار الثقافى » قد اعتقدت أن الثقافات لم تكن نتيجة نمو متواز مستقل بل كانت نتيجة انتشار اختراعات من مراكز ثقافية قليلة . على أن كلتا المدرستين بامتدادهما النظرى الواسع وبزعمهما القائل بالتعقد المتزايد فى الثقافة بدرجة متكافئة مع التقدم الشامل قد أحدثت رد فعل لا مناص منه . ولقد استحدث كل من أميل دوركايم بأوربا وفرانز بوس بأمريكا وبرونسلو مالينوفسكى بانجلترا نزعة تجريبية أنثروبولوجية مستبدلين بدراسة الإنسانية ككل الدراسة المستأنية لثقافات بالذات . فمالينوفسكى مثلا قد أرسى دعائم المدرسة الوظيفية التى تأتت إلى حد بعيد عن الدراسة التقليدية لتاريخ الثقافات بقصد شرح كل جانب من جوانب الثقافة فى ضوء مساهمته فى الكل فى لحظة معينة(٢) .

وعلى الرغم من أن النزعة الوظيفية غير التاريخية قد استولت على الانثروبولوجيا الإنجليزية ، فان النسبية التاريخية لدى « بوس » قد أثرت فى معظم الأنثروبولوجيين الأمريكيين وبخاصة إدوارد سابير وروث بنيديكت ، وملفيل ج. هيرسكوفيتس(٣) . وفى عام ١٩٣٠ حدث اتساع وتعميق بفضل اهتمام جديد مهد له روث بنيدكت بمفهوم الثقافات ككليات ، وبينما أقام « بوس » الاعتبار الأول للأجزاء الفردية للثقافات المختلفة ، فان بعضا من أتباعه حولوا انتباههم إلى الأنماط أو الأشكال الأساسية للأجزاء التى تجعل أى ثقافة كلا وظيفياً . ومنذ ذلك الوقت صار التجديد الرئيسى هو دراسة الثقافة والشخصية أعنى العملية التى تستوعب الثقافة وتعدل بواسطتها على يد الشخص باعتباره فرداً — وهذا اتجاه عمل على التخفيف من ميل الأنثروبولوجى إلى تركيز اهتمامه على الثقافة فى حد ذاتها وليس الاهتمام بالأفراد الذين يجعلونها أمراً ممكناً (٤)

وعلى الرغم من أن الأنثروبولوجيا تعتبر من أحدث العلوم الاجتماعية

فانها تتفوق عليها جميعاً فى امتداد مادة موضوعها وفى المنهج الذى تستعين به . وبينما يدرس العلماء الآخرون جوانب معينة من الثقافة ، فإن الأنثروبولوجى ينشد رد جميع الجوانب إلى الثقافة ككل ، وبينما يركز أولئك العلماء على بعض ثقافات معينة متقدمة للغرب الصناعى ، فإن الأنثروبولوجى يولى وجهه إلى جميع الثقافات الماضية والحاضرة ، البدائية والمتحضرة ، وبينما أولئك العلماء يأخذون فى اعتبارهم امتدادات معينة فى الماضى ، فان الأنثروبولوجى يجعل فى مجاله جميع تاريخ الجنس البشرى . وفوق كل شىء فان الأنثروبولوجى يوقفنا على التباين التام بين الثقافات ، وعلى التأثير العميق للتكييف الثقافى على السلوك الإنسانى والشخصية الإنسانية . وهو يظهرنا على المدى البعيد أو المدى القصير الذى يمكن أن يصل إليه التغيير فى الطبيعة الإنسانية .

على أن هذا المدى الواسع ليس دليلا فقط على القوة ، بل وأيضاً على الضعف ، ذلك أنه يجعل الأنثروبولوجيا أقل العلوم ترتيباً ، دون أن يكون لها محور مقبول لنظرية تسمح بتنبؤ واسع ودقيق . وأكثر من هذا فان التركيز على الثقافة التى تعد المصدر الرئيسى لهذا الاتساع ، له أيضاً نقطة ضعف أخرى . فبما أن جميع الخبرات الثقافية ينبغى أن تكون شركة فيما بين شخصين على الأقل وهى شركة كقاعدة عامة بين كثيرين ، فإن الأنثروبولوجيا تفهم المجموعات أكثر من تفهمها للأشخاص . وهى لاتذهب إلى غير بعيد فى الطبيعة الإنسانية الفردية ، ولا تكاد تدخل فى نطاق اللاشعور [٥] ولكى نفهم أعماقاً كهـــذه ينبغى علينا أن نولى أنظارنا إلى مجال آخر — إلى الدين وعلم النفس والمسرحية والرواية . إذن فالأنثروبولوجيا تسهم فى دراسة الإنسان ، ولكنها لا تقوم بتصنيفه تحت مبدأ عام . [٦]

معنى الثقافة :

نحن نقصد بالثقافة فى حد ذاتها جميع طرائق الحياة التى طورها الناس فى المجتمع . ونعنى بلفظ ثقافة معينة طريقة الحياة المشتركة برمتها لدى شعب بالذات ، متضمنة طرقهم فى التفكير والتصرف والشعور التى يعبر عنها مثلا فى الدين والقانون واللغة والفن والعرف ، وكذلك فى المنتجات المادية مثل المنازل والملابس والأدوات . ومن وجهة نظر أخرى فاننا قد نتناول الثقافة كسلوك متعلم مشترك (أفكار وتصرفات ومشاعر) لدى شعب معين مضافاً إليه منتجاتهم المصنوعة — ونعنى بكلمة متعلم أن هذا السلوك ينتقل بطريقة اجتماعية وليس بطريقة وراثية ، ونعنى بأنه مشترك أنه يمارس إما بواسطة كل الشعب أو بجزء معين منه .

وثقافتنا هى الطريقة التى نأكل وننام بها ، وهى الطريقة التى بها نغتسل ونرتدى ملابسنا ونذهب إلى العمل. إنها اللغة التى نتكلم بها والقيم والمعتقدات التى نستمسك بها . إنها السلع والخدمات التى نشتريها والطريقة التى نشتريها بها . إنها الطريقة التى نقابل بها أصدقاءنا والغرباء عنا ، والطريقة التى نحكم بها أطفالنا والطريقة التى يستجيبون بها . إنها وسائل الانتقال التى نستخدمها والترفيه الذى نستمتع به .

إذن فكيف السبيل إلى التمييز بين الثقافة والمجتمع ؟ إن المجتمع هو شعب متمركز فى مكان معين يتعاون بعضه مع بعض عبر حقبة من الزمن من أجل أهداف معينة ، والثقافة هى طريقة هذا المجتمع فى الحياة ، أو هى تلك الأشياء التى يفكر بها أعضاؤه ويحسون بها ويضطلعون بها . وكما يقول فليكس كيسنج: يمكن أن نحدد الأمر بغاية البساطة بالقول بأن « الثقافة » تركز البؤرة على عادات الشعب ، بينما يركز « المجتمع » على الشعب الذى يشارك فى العادات(٧) . نعم إن الحيوانات والحشرات تعيش هى أيضاً فى مجتمعات ، بل إن بعض الحيوانات مثل قطعان الابل لها

« أسر » و « قادة » . ولكن سلوكاً اجتماعياً كهذا هو سلوك غريزى وليس سلوكاً مكتسباً ، ومن ثم فإنه لم يفض إلى قيام ثقافة .

وهل للمجتمع الواحد حدود مشتركة مع ثقافة واحدة ؟ ربما يكون هذا صحيحا بشرط أن يكون المجتمع صغيراً ومنعزلاومستقراً.على أن معظم المجتمعات الكبيرة متعددة الثقافات أو تقول بأن هناك أكثر من حقيقة مطلقة واحدة . وهي تنحو إلى اتخاذ ثقافات فرعية متعددة أو كثيرة . فالولايات المتحدة على سبيل المثال تضم الثقافات الفرعية للهنود والمكسيكيين والبورتريكيين والقوات المسلحة والمراهقين وأصحاب موسيقى الجاز وغير ذلك من ثقافات فرعية .

مضمون الثقافة :

من الممكن ترتيب مظاهر الثقافة بطرق متعددة . فهي مثلا يمكن أن تصنف كمناشط مكتسبة ومساهمة ، وذلك مثل قيادة السيارات وتحديد موعد للقاء وارتياد المسرح ، كما يمكن أن تصنف كأفكار مكتسبة ومساهمة كالاعتقاد فى الله وكراهية الشيوعية ، وكنتاجات مساهمة ومكتسبة اجتماعياً كالسيارات وناطحات السحاب . ولقد تصنف هذه الظواهر أيضاً إلى تكنولوجيا (الوسائل التى بواسطتها يعالج العالم المادى) وإلى تنظيم اجتماعى (المناشط والمؤسسات المتضمنة فى سلوك أفرادها بعضهم مع بعض) وإلى أيديولوجية (المعرفة والقيم والمعتقدات التى تتضمنها الثقافة) [٨]. ومن أحسن التصنيفات المعروفة التصنيف الثلاثى لرالف لينتون إلى عموميات وخصوصيات وبدائل [٩] .

أما العموميات فهى جميع الأفكار والتصرفات والمشاعر والنتاجات الصناعية المشتركة بين جميع الراشدين بأحد المجتمعات ، وهى تتضمن إلى

جانب أشياء أخرى اللغة والإسكان وعلاقات القرابة والأزياء والمعتقدات والقيم المتباينة . أما الخصوصيات فهى تلك الظواهر التى لا يشارك فيها سوى أفراد من مجموعات اجتماعية متميزة معينة ،وذلك مثل الصناعات والمهن ذات المهارة . أما البدائل فهى تلك التى لا يشارك فيها إلا عدد محدود من الأفراد كالقساوسة أو الرسامين أو الفلاسفة .

ولكن الثقافة أكثر من مجرد مجموع أجزائها . إنها أيضاً الطريقة التى تنتظم تلك الأجزاء وفقها لكى تشكل كياناً كلياً ، فكما أن المبانى المتعددة يمكن أن تصنع من نفس الخامات ، ومع هذا فانها تختلف فى البنيان والوظيفة . كذلك قد تشترك ثقافات متعددة فى بعض العناصر المتشابهة ومع ذلك فكل منها قد تنتظمها بطريقة فريدة ، وعلى هذا فلكى نفهم إحدى الثقافات علينا ألا نقتصر على استيعاب أجزائها بل وأيضاً استيعاب البنيان الذى يضم تلك الأجزاء .

وتبعاً للانثروبولوجيين فان هذا البنيان يتشكل من هيئات أساسية معينة تستجيب بشكل عام لاتجاهات ومعتقدات الثقافة الرئيسية . ولقد نشد بعض الانثروبولوجيين تمييز كل ثقافة بهيئة تنفرد بها ، فروث بينيدكيت مثلا يقابل بين المزاج الشعبى الديونيسى (أو هيئته) لدى الهنود بالسهول الغربية وهم الذين يقدرون قيمة الانغماس فى الشراب، وبين المزاج الشعبى الأبولونى لدى هنود بويبلو الذين يقدورون قيمة الاعتدال فى هذا الشأن(١٠) على أن معظم الانثروبولوجيين يفضلون العثور على عدد الهيئات ، على الأقل بالمجتمعات الأكثر تعقداً . ولقد تكون بعض الهيئات مسيطرة بينما قد تكون هيئات أخرى مساندة أو حتى متصارعة(١١).

وكل ثقافة وقد انتظمت وفق هيئات كهذه فانها تشكل نظاماً مستقلا يتم الإحساس باتساقه أكثر من رسمه ذهنياً . فهذه الهيئات تتخلل جميع قطاعات الثقافة ، وكما تلاحظ روث بينيدكت « أن جميع السلوك المتنوع

الموجه نحو كسب العيش والتزاوج والحروب وعبادة الآلهة يتشكل وفق أنماط متسقة تبعاً لدروب لاشعورية للاختيار تتطور بعمق فى نطاق الثقافة[١٢] ويظهر أوبلر مثلا أن بين تشيريكاهوا أباتش فإن « الفكرة الرئيسية » المتعلقة بسيطرة الرجل تبدو أنها امتداد للمعتقدات كالاعتقاد القائل بأن الجنين المفعم بالحيوية سيكون ولدا والاعتقاد بأن النساء وهن أقل اتزانا من الرجال أكثر ميلا لإحداث النزاع بالبيت . ويعبر عن ذلك أيضاً فى بعض العادات كقصر مجالس الشورى بالقبيلة على الرجال ، وفى إسناد أماكن خاصة محجوزة بالولائم للرجال ، مع السماح للنساء بالأكل حينما يتسنى لهن ذلك[١٣] .

وإلى جانب أن الثقافة تتسم بالترتيب فانها أيضاً انتقائية فهى تستحدث وتتكيف تبعا لتشكلاتها التى تنطوى عليها . ولقد أجاد كليد كوكهون ووليم هـ . كيلى التعبير عن هذه النقطة بقولهما :

كما أن ما يقدم عليه أحد الأفراد من اختيار فى فترة حساسة من حياته يدفع به فى اتجاهات معينة لباقى حياته ، كذلك فان النزعات الأصلية والاتجاهات « والاهتمامات » التى تتخذ صفة الرسمية فى خطة حياة مجتمع ما تم تكوينه حديثا تميل إلى توجيه إحدى الثقافات تبعا لبعض الاتجاهات المعارضة لاتجاهات أخرى . والاختلافات التالية فى الثقافة — سواء تلك التى تنشأ داخليا أم تلك التى تعد استجابة للاحتكاك بالثقافات الأخرى أو التغيرات فى البيئة الطبيعية — لا تقع عشوائيا . فهناك على نحو ما على الأقل تنوع ثقافى خاضع لنظام مقرر إلى جانب ذلك التنوع البيولوجى الخاضع لنظام مقرر أيضاً[١٤].

أما المصطلح الأنثروبولوجى الخاص بدرجة الوحدة المتأتية بواسطة إحدى الثقافات فهو التكامل . فكل ثقافة تضم عدة أنماط مختلفة من السلوك . فالثقافة الأمريكية مثلا تشتمل على أنماط سلوكية مثل « تفريش»

الأسنان ومشاهدة التلفزيون ولعب الباسبول وانتخاب رئيس الجمهورية ، وتكون إحدى الثقافات متكاملة إلى الحد الذى تكون أنماط السلوك بها فى علاقة متبادلة بعضها مع بعض ، وكلما كانت الثقافة أكثر تكاملا كلما كانت هذه الأنماط أكثر تعزيزاً بعضها لبعض . وكلما كانت الثقافة أقل تكاملا كلما كانت تعمل بصورة أكثر استقلالا . وتشكل الأنماط المترابطة للسلوك أنماطا أكثر شمولا ، أو نظما فرعية فى نطاق النظام الكلى للثقافة . وبذا فان مثل تلك الانماط السلوكية كتعلم القراءة ورفع أصبع التلميذ بالفصل وتصحيح أوراق الإجابة والالتحاق بمعاهد المعلمين إنما تنتمى جميعا إلى نظام فرعى للتربية .

وفى كل ثقافة نجد أن بعض النظم الفرعية أكثر أهمية من سواها . وتعرف أكثر النظم الفرعية أهمية لدى الأنثروبولوجيين بالبؤرات FOCI والبؤرة هى مجال ذو اهتمام واستحواذ على أفراد الثقافة . إنها مجموعة من أنماط السلوك تستوعب كثيراً من وقتهم وطاقتهم . وكلما كانت الثقافة أكثر تكاملا ، زادت سيطرة البؤرات على أنماط سلوكها وزادت هذه البؤرات فى ترابطها بعضها ببعض . والعكس صحيح بالنسبة للثقافات الأقل تكاملا(١٥) .

فالهوبى مثلا ثقافة متكاملة إلى حد بعيد . فبين الهوبى هناك بؤرتان – المشاركة بالحفلات والحياة الاجتماعية – وهى تشتمل بصورة ما على معظم مناشط الثقافة . وتشتمل المشاركة الاحتفالية على مناشط مختلفة معينة مثل الجماعات السرية وترتيبات الزواج والطقوس ، وعبادة الكاشينا (كائنات روحية يبجلها الهوبى) والبحث عن الرزق . ولفهم هذه المناشط ، علينا أن نقف على كيفية ترابطها فى نطاق بؤرة المشاركة الاحتفالية(١٦) .

أما الثقافة الأمريكية فانها أقل تكاملا . فلو أن الثقافة الأمريكية كانت

أكثر مدى من التكامل ، إذن لكان المنهج قد تكيف بطريقة مباشرة أكثر مما هو عليه لمقابلة حاجات الصناعة ، ولكانت الاهتمامات الصناعية قد أخذت بزمام المبادرة فى رعاية التطورات التربوية أكثر مما تفعل اليوم . والواقع أن المجتمع الجماعى هو بالطبع أكثر تكاملا من المجتمع الديموقراطى، لأنه يستطيع أن يفرض نظاماً أكثر اتساقاً على ثقافته . وهكذا نجد فى روسيا أن التربية تحت اسم « تنويع الفنون التطبيقية البوليتكنيكية » قد ارتبط ارتباطاً مباشراً بحاجات الصناعة أكثر مما عليه الحال بأمريكا[١٧].

وكلما كانت الثقافة أكثر انغلاقاً ، كانت مقاومتها لغيرها أكبر ، إذ أنه حتى ما يبدو فيها من سمات عارضة إنما يكون متأصلا بشكل مباشر فى بؤراتها أو تشكلاتها الموجهة ، فاذا ما أقحم التغير عليها إقحاماً ، فان الثقافة قد تتأثر بشدة بل وقد تصل إلى حد الانهيار[١٨]. فثقافة ساموا مثلا قد تمزقت بادخال المنازل ذات الطابع الغربى التى افتقرت إلى الأعمدة التى تحدد أماكن جلوس الأشخاص ذوى المراتب المختلفة[١٩] . ثم هناك حالة قبيلة الاسترالين الشماليين الذين استخدم رجالهم الفئوس الحجرية لقتل الحيوانات ولقطع خشب الحريق . فلقد كانت الفأس ملكيتهم التى يعتزون بها ورمزاً لرجولتهم . بيد أن المبشرين قد أدخلوا السواطير الصلبة وأعطوها لكل من الرجال والنساء على السواء . ولقد أشاعوا الفوضى دون قصد من جانبهم فى نمط الجنس والعلاقات العمرية ، وحطموا الدوافع التى أدت بالأطفال والمراهقين إلى طاعة ذويهم من كبار الذكر ، وحرمان الرجال من احترام الذات . فلقد تمكنت النساء من استخدام السواطير . فالقبيلة قد انهارت تقريباً بفعل من أفعال الشفقة[٢٠] .

وعلى عكس ذلك كلما كانت الثقافة أكثر تكاملا ومرونة فى نفس الوقت ، فانها تكون أكثر انتحاء إلى استيعاب مجموعة من المستحدثات دون أن تكون مهددة بطريق مباشر فى أسسها . وهكذا فان الثقافات المستمدة

من مصادر مختلفة بالغرب قد تلقت الجبر عن العرب ، والطباعة عن الصين والتبغ عن أمريكا كما تلقت ما لا عداد له من الابتكارات المختلفة من ثقافات مختلفة عبر العالم .

على أنه لا توجد ثقافة واحدة متكاملة تماماً . ذلك أن التكامل كما يقول كروبير « هو شرط مثالى اخترعه قليل من الانثروبولوجين وليس متمكناً فى التاريخ[٢١] » . ومعظم مجالات الثقافة تحظى بدرجة من الاستقلال ، ولكن الكثير فى الواقع يختلف بدرجة لايستهان بها من ثقافة إلى أخرى وفى نطاق نفس الثقافة من مجال إلى مجال آخر . فمثلا حتى فى أكثر الثقافات مرونة فان النحو يظل ثابتاً تقريباً ، بينما تتغير معانى المفردات اللغوية باستمرار .

وبما أن التكامل لا يكون كاملا على الإطلاق ولما كانت الثقافة لا تخضع للتخطيط الذهنى بل هى نتاج لتاريخ طويل ومعقد ، فان كل ثقافة تتضمن بعض التناقضات والنقائض . فثقافتنا مثلا تستخدم موازين ومقاييس غير عشرية ، والهجاء فى اللغة على خلاف النطق بها ، وكلا الاستعمالين معارض لاهتمامنا بالفعالية .

بعض خصائص الثقافة :

الثقافة عضوية وفوق عضوية فى نفس الوقت . فهى عضوية فى أنها متأصلة بصفة جوهرية فى الكائن الحى الإنسانى . ذلك أنه بدون أن يعمل الناس ويفكروا ويحسوا ويقوموا بصنع النتاجات الصناعية ، لا يمكن قيام ثقافة على الإطلاق . والثقافة فوق عضوية بمعنى أنها تعمر بعد أجيال بعينها ، وبمعنى أن مضمونها هو إلى حد أبعد نتاج للمجتمع الإنسانى أكثر من أن يكون نتاجاً لبيولوجية الإنسان .

والثقافة علنية ومستخفية فى نفس الوقت . فهى علنية فى تلك الأعمال

والنتاجات الصناعية كالمنازل والملابس وأشكال الحديث التى يمكن مشاهدتها بطريق مباشر . وهى مستخفية فى تلك الجوانب كموقفها المتضمن تجاه الطبيعة وعالم الروح وهو ما يجب استنتاجه مما يقوله أفراد المجتمع ويفعلونه .

والثقافة واضحة ومضمرة . وتتكون الثقافة الصريحة من جميع الأساليب السلوكية كقيادة إحدى السيارات وتكوين علاقة حب والمشاركة فى لعبة الباسبول ، تلك التى يمكن أن يصفها بسهولة أولئك الذين يمارسونها . أما الثقافة المضمرة فانها تتضمن تلك الأشياء التى يأخذها الناس على علاتها تقريباً والتى لا يستطيعون تفسيرها بسهولة . فمثلا جميع الراشدين العقلاء يستطيعون التحدث بلغة ثقافتهم ، ولكن قليلا منهم يستطيعون تفسير نحوها وبناء جملها بأى تفصيل .

والثقافة مثالية وواقعة . فالثقافة المثالية تشتمل على الطرق التى يعتقد الناس أن الواجب عليهم السلوك وفقها ، أو التى قد يرغبون فى إنتاجها أو التى يعتقدون أن من الواجب عليهم السلوك بمقتضاها . أما الثقافة الواقعة فانها تتشكل من سلوكهم الفعلى . وهكذا نجد أن المسيحية بالولايات المتحدة فى الوقت الحاضر مثالية أكثر منها واقعة . فكثير من الأمريكيين إذا ما سئلوا فانهم يعلنون عن معتقد غامض فى الآخرة . ولكن قليلا منهم نسبياً يتخذون خطوات عملية فى حياتهم اليومية للاستعداد لها . وفى الثقافات التى تجتاز تغيراً سريعاً فان الفاصل بين الثقافة المثالية والثقافة الواقعة أخذ بالتأكيد فى الاتساع ، ذلك أنه كقاعدة عامة نجد أن الظروف المتبدلة وبخاصة التكنولوجيا المتغيرة سرعان ما تفوق فى سرعتها المثل العليا . قارن بين مثلنا الأعلى المتعلق « بالفردية الفجة » وبين السيطرة الفعلية للاقتصاد بواسطة عدد قليل نسبياً من الشركات الكبيرة .

والثقافة ثابتة ولكنها دائماً متغيرة . والواقع أن كل صفة من هاتين الصفتين تستلزم منطقياً الصفة الأخرى ، ذلك أن التغير لا يمكن أن يقاس

إلا فى مقابل العناصر التى تعد ثابتة نسبياً ، ولا يمكن قياس الثبات إلا فى مقابل تلك العناصر التى تتغير بسرعة أكبر . وبعض الثقافات وبخاصة تلك الثقافات الخاصة بالغرب أكثر مرونة من غيرها ويمكن أن تتوافق مع درجة أكبر سرعة من التغير دون أن تصاب بالتحلل . وبالإضافة إلى هذا فان إحدى الثقافات قد تكون أكثر تقبلا للتغير فى بعض الاعتبارات عنها فى اعتبارات أخرى . ففى الثقافات الغربية فان التكنولوجيا مثلا تتغير بشكل أسرع من تغير القيم . ومع هذا فلا القيم ولا الإيديولوجية تظل ثابتة . وقليل من الأمريكيين مثلا ما يزالون يتقبلون قصة الخلق بسفر التكوين لما وردت به حرفياً . وجميع الأنثروبولوجيين بوجه عام يؤكدون تحول الثقافة بشكل أساسى [٢٢] ، على الرغم من أن قليلا منهم مثل لزلى هوايت وبعض التطوريين المحدثين يؤكدون مقاومة الثقافة للمحاولات المقصودة والمتصورة عقلياً لإحداث تغير ثقافى [٢٣].

وحتى هذه النقطة أكون قد لخصت معنى الثقافة ومضمونها وخصائصها العامة ، وأكون قد تقدمت بالقارىء إلى اللغة الأساسية كما هى فى الواقع التى تنقل بواسطتها المعرفة الأنثروبولوجية . ولعلنا الآن نعمل مسحاً للعلاقة الضخمة القائمة فيما بين الأنثروبولوجيا والتربية .

التربية والأنثروبولوجيا:

تتضمن التربية بأوسع معنى لها كل عملية – باستثناء العملية التكوينية الوراثية – تساعد فى تشكيل عقل الشخص أو خُلقه أو طاقته الجسمية . والتربية تستمر طوال الحياة وذلك لأننا ينبغى أن نتعلم طرقاً جديدة من التفكير والتصرف مع كل تغير رئيسى فى حياتنا [٢٤] . والتربية بمعنى أضيق هى غرس معلومات ومهارات واتجاهات معينة فى كل جيل بواسطة بعض المؤسسات كالمدارس التى أنشئت لهذا الغرض . ومع هذا فلفظ تربية يعنى أيضاً ذلك الفرع المعرفى الأكاديمى (المشتمل على علم النفس وعلم الاجتماع

والتاريخ وفلسفة التربية) الذى يعتبر موضوعه هو التربية بالمعنى الثانى .

ويبدو أن الإنسان قد عرف دائماً أن الناشئة لا ينضجون ثقافياً ما لم نوقفهم على كيفية السبيل إلى ذلك . والأطفال يدركون أن أساليب الرشد يجب أن تكتسب عن طريق الكبار . ولقد اكتشف كل مجتمع أن نقل ثقافته لا يمكن أن يترك للمصادفة . فيفرض أن الطفل يستوعب هذه الثقافة من الخبرات التى لا عداد لها فى هذه الحياة اليومية . ومع هذا فان اسيعاباً تلقائياً كهذا لا يمكن أن يضمن أنه يتلقى بدقة تلك العناصر الثقافية التى يعتقد المجتمع أن أفراده يجب أن يحصلوا عليها إذا ما أريد لهم أن يستمروا به ويجددوا حيويته . ولذا فان كل مجتمع يشرف على تربية أفراده . فكل واحد فى نقطة معينة من طفولته يربى بطريقة مقصودة على أن هذا لا يتم حتماً باحدى المدارس .

فالتربية إذن تنتمى إلى العملية العامة المعروفة باسم التثقيف الذى بواسطته ينخرط الشخص النامى فى طريقة الحياة بمجتمعه . ولفهم ديناميكيات التثقيف فى تأثيرها فى التربية ينبغى علينا أن نولى وجوهنا إلى الأنثروبولوجيا . ولعلنا نكتفى بمثال واحد . فالثقافات كما نعلم تختلف نتيجة عدم الاستمرار التى تفرضها بين الطفولة والنضج . ففى بعض الثقافات يكون التقدم إلى المراهقة ممهداً وغير مقطوع . ولكن فى بعضها الآخر كما هو الحال فى ثقافتنا يتطلب الأمر من المراهق أن يستكشف طريقه فى الحياة فجأة وما يترتب على ذلك من توتر وإجهاد . وتثير هذه المسألة أسئلة على جانب كبير من الأهمية أمام التربية . إلى أى حد يكون عدم الاستمرار محتوماً بالنسبة لكل شخص ينشأ فى مجتمع صناعى حديث ؟ وإلى أى حد يمكن التخفف من ذلك ؟ وكيف يؤثر عدم الاستمرار فى دراسات المدرسة وطرائق التعليم بها ؟ .

ولكن التربية إذا ما نظر إليها كتعليم بالمدارس فان ذلك لا يعدو أن يكون واحداً فقط من وسائط التثقيف – ونخص بالذكر الأسرة والكنيسة ، ومجموعة الأتراب ووسائل الاتصال الجماهيرية – و كل منها بقيمها وأهدافها الخاصة . وبذا فعلى الرغم من أن المربى قد يريد صقل صفات معينة بالطفل ، مثل التفكير الواضح والحكم المستقل ، فانه يجد نفسه قاصراً عن عمل ذلك لأن الواقع أن هناك وسائل أخرى قد تكون بسبيل صياغة الطفل بطريقة مختلفة[٢٥] فالتليفزيون مثلا ينشد من آن لآخر تقديم المعلومات ، ولكنه ينشد التسلية بصفة رئيسية ، فيهز الشعور أحياناً ، ويدأب على ترويج البضائع من خلال التلميح والتأكيد والإغراء . فهل يستطيع بمثل تلك الوسائل أن ينتج عقولا صافية التفكير ومستقلة ؟ وإلى أى حد تستطيع المدرسة أن تتعاون مع وسائط التثقيف الأخرى ، وإلى أى حد يجب عليها أن تعارضها ؟ وإلى أى حد تتنازع هذه الوسائط الواحدة منها مع الأخرى ؟ وإلى أى حد تعد حلفاء مع المدرسة ؟ لكى نجيب عن هذه الأسئلة ولرسم السياسات المناسبة للمدرسة ، يجب على المربى أن يعرف طبيعة ومدى الوسائط التثقيفية . ولهذا ينبغى عليه أن يولى وجهه شطر الأنثروبولوجيا .

والتربية كقطاع واحد فى الشبكة العظيمة للثقافة تستجيب للأحداث الواقعة فى أجزاء أخرى من الثقافة وقد تؤثر فى بعض الأحيان فى هذه الأحداث ذاتها . وفى الثقافة الصناعية نجد العلم وتطبيقه فى التكنولوجيا يمثل أداة كبيرة للتغيير . ونحن فى العالم الغربى نعيش فيما أطلق عليه اسم الثورة الصناعية الثانية . فالثورة الصناعية الأولى تدور حول محور الآلة البخارية وآلة الغزل وبهما حلت الآلة محل العضلة . أما الثورة الصناعية الثانية فقد جمعت قوتها الدافعة منذ عام ١٩٤٥ على الرغم من أنها بدأت قبل ذلك خلال هذا القرن . فهذه الثورة التى تدور حول قوة الذرة والكيمياويات والآلات الحاسبة والآلات ذاتية الحركة ، قد زادت إلى حد

بعيد من الطاقة التى نستطيع إنتاجها قد بدأت فى إحلال الآلا ت محل الفكر البشرى وتحكمه .

وهذه الثورة أكثر بكثير من الثورة الأولى فى اعتمادها على الخبير الفنى والخبير المهنى — أكثر من اعتمادها على الهاوى المثقف . لقد تأثرت فى مدارسنا ومعاهدنا بعمق وذلك بتسليمها التخصص الفنى ، المهنى . وكذا فان مجتمعا مطرد الزيادة فى التخصص يؤثر أيضاً فى مهنة التعليم ، فلقد خلق أعداداً متزايدة من الإداريين والمرشدين النفسانيين والباحثين والمختبرين وغير ذلك من خبراء . والتربية بدورها ترفع مستوى ودرجة التغير فى العلم والتكنولوجيا وذلك بانتاج علماء وتكنولوجيين مدربين إلى درجات أعلى وأعلى باستمرار .

وفى مجتمع كهذا — معقد ومتخصص ومتغير بسرعة خاطفة — فإن مهمة المدرسة فى نقل الثقافة محفوفة أكثر فأكثر بالمشكلات . فحجم المعرفة مترامى الأطراف بالفعل ، ودائب فى النمو ، وليس هناك اتفاق عام على ما ينبغى على التلميذ أن يتعلمه . وفى نفس الوقت فان هذه المعرفة آخذة باستمرار فى التخصص ، مع ما يتأتى عن هذا من أن على التلميذ أن يتعلم أكثر ، سواء لامتلاك ناصية تخصصه ، أم لاستيعاب الثقافة ككل . وأكثر من هذا فان التغيير السريع المستمر يجعل من الصعب التنبؤ بما يجب على الجيل القادم أن يعرف . وبذا فكلما زاد عدد الأشياء التى يجب تعلمها ، فاما أن الزمن المقضى فى تعلم كل شىء من تلك الأشياء يجب أن ينقص ، وإما أن تستحدث طرائق أفضل فى التعلم والتدريس أو أن يؤخذ بكلا الحلين . بيد أن هناك شكا قليلا فى أنه على الرغم من مدى طرائق التدريس التى وضعت بالفعل لإيصال مختلف المواد ، فان الإنسان الحديث آخذ فى تجميع المعرفة بدرجة أسرع من اختراعه الطرائق لإيصالها . ويتطلب وضع طريقة جديدة فى إيصال المعرفة الجديدة إذا كان من

الواجب وضعها قيام مادة إضافية يجب تعلمها ، كما هو الحال فى التعليم بالآلات[١٦] .

إذن لكى نفهم ما يستطيع نظامنا المدرسى إنجازه والطرق التى تعمل العوامل الثقافية على إحباطها ، علينا أن نشاهد التربية فى سياق الثقافة ككل . فهنا ينبغى على المربين والانثروبولوجيين أن يتضافروا ، وذلك لأنه كقاعدة عامة تعوز المربى معرفة الأنثروبولوجى بامتداد الثقافة وتفصيلاتها بينما نجد قلة من الأنثروبولوجيين يرغبون فى أن يوجهوا انتباههم إلى الظاهرة الثقافية للتربية وحدها .

والأنثروبولوجى بوجه خاص يستطيع أن يقتفى أثر تلك الصراعات فى الثقافة الأوسع التى تتخلل جميع الثقافات الفرعية للتربية والتى لا يدركها المربى الممارس للتربية بوجه عام . فالصراع بين القيم الأمريكية التقليدية وبين القيم الناشئة لمجتمع غنى متدفق مثلا إنما يسيطر على أعمال المدرس بما يترتب على ذلك من نتائج لم يستهدفها . فإذا كان علينا أن نضمن وصول التربية إلى أهدافها المعترف بها ، فاننا نكون بحاجة إلى أن يخبرنا الأنثروبولوجى أين تعوق الخصومات المعتملة جهود المدرس .

وبما أن المهمة الأولى للتربية هى الاستمرار بمنجزات الثقافة ، فهى تتخذ لذلك طابعاً تقليديا . ومع ذلك فالى الحد الذى تعد عنده الناشئة للتكيف للأحداث المتوقعة بداخل وخارج الثقافة فى نفس الوقت ، فانها تمهد الطريق أمام التغير الثقافى . فهل تستطيع التربية أن تفعل أكثر من هذا ؟ وهل تستطيع أن تمرن الجيل الآتى ليس فقط على التكيف لتغيرات محددة فى الثقافة ، بل وأيضاً أن تمرنه على استحداث تلك التغيرات ؟ ومرة أخرى لكى نجيب عن هذا السؤال المثير للجدل فان علينا أن نتحول إلى الانثروبولوجيا حتى نكتشف سلسلة كاملة من القوى تستحدثها الثقافة لكى تؤثر فى نظامها التربوى . إن أية خطة معقولة لجعل المدرسة قوة

متقدمة لتغير ثقافى يجب أن تأخذ فى اعتبارها القوى التى تقف المدرسة مناهضة لها .

وتستطيع الانثروبولوجيا أيضاً أن تدعم التربية وذلك بدراسة المناهج التربوية للثقافات الأخرى سواء كانت بدائية أم حديثة . تمكن دراسة التربية فى الثقافات المضادة المربى من أن يتعلم من خبرات الثقافات الأخرى وأن يدرس مدارسه بطريقة أكثر موضوعية . وعلى الرغم من أن المسألة تستدعى الانتظار لحين مشاهدة ما إذا كان من الممكن وضع نظام من الفئات يصلح للتطبيق على النظم التربوية بجميع الثقافات ، فلابد من القيام مع ذلك بالمحاولة [٢٧] . فالمربى ينبغى أن يتقدم بحرص . ذلك أن الثقافات بما أنها فريدة فان من الصعب مقارنتها . وأكثر من هذا فان فئات المقارنة يجب أن تكون اجتهادية طالما أن فئات أخرى تظهر بلا مناص .

والعلماء فى الوقت الحاضر مشغولون بسلسلة من دراسات الحالة المتعلقة بالعوامل الثقافية التى تعمل عملها فى سلسلة من المواقف التربوية [٢٨] . ومع هذا فعلى الرغم من أن بعض الإسهامات الجديرة بالملاحظة قد قدمت ، فان فحص تفاعل الثقافة والتربية قد بدأ حثيثاً . أما ما إذا كان الوقت قد حان لدراسة شاملة للأنثروبولوجيا التربوية ، فانه ربما يكون موضوعاً جدليا . فلقد بدأ بالفعل ثيودور براملد فى محاولة لوضع نظرية كهذه . فتصور تلك النظرية بضخامة والتعبير عنها بشكل انطباعى توضح مع ذلك العملية التربوية التى تتفق بشكل أساسى مع فلسفة براملد التجديدية التى سوف أناقشها فيما بعد [٢٩] . ومن جهة أخرى فان جورج سبندلر يدعو إلى طريقة لفهم المسألة بصورة أكثر استقرائية . فهو يؤكد بالحجة أن المساهمة الرئيسية التى يمكن أن تقدمها الانثروبولوجيا للتربية هى أن تقدم فى وقت واحد مجموعة من المعلومات المحققة والواقعية وذلك بتحليل جوانب مختلفة من العملية التربوية فى مجالها الاجتماعى الثقافى [٣٠] .

ومع هذا فان النظريات الخاصة والتجارب المنفصلة سوف لا تقدم فى حد ذاتها فرعاً من المعرفة يسمى بالأنثروبولوجيا التربوية . ففى الأساس ينبغى أن تكون الأنثروبولوجيا التربوية دراسة منظمة ، وليست فقط ممارسة تربوية من وجهة النظر الثقافية ، بل وأيضاً فى ضوء الفروض التى يقدمها الأنثروبولوجيون والفروض التى تعكسها الممارسات التربوية [٣١] . فمثلا يزعم معظم الأنثروبولوجيين العاملين فى التربية أن المدرسة هى أنسب الصيغ للمؤسسة التربوية وهو زعم يمكن قبوله إلى حد بعيد . ولكنهم بعد ذلك يتقدمون كما لو أن هذه حقيقة لا تقبل الجدل . فهل المدرسة حقاً « العنصر الخير فى الثقافة » ؟ وكيف نعرف ذلك ما لم يكن لدينا نظام من القيم لتوجيهنا ؟ إن مجموعة من التجارب التى تزعم أن المدارس كانت أقل تأثيراً من غير ذلك من وسائط تربوية سوف تصطدم مع معظم المعلومات التى جمعت حتى الآن فى الأنثروبولوجيا التربوية . وواضح أن هناك تكييفات خاصة بالقيم فى مجال الأنثروبولوجيا تؤثر بشكل ملحوظ فى علاقتها بالتربية . ولذا تصبح مسئولية المربين ليس فقط سبر أغوار هذه القيم ، بل وأيضاً تربيتها وربطها بالفكر التربوى والممارسة التربوية ككل .